ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يُوبِّخهم الحق - سبحانه وتعالى - ويُبكِّتهم : يا خيبتكم ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أنْ تدعوا ثُبوراً واحداً ، بل ادعوا ثُبوراً وثبوراً وثبوراً ؛ لأنها مسألة لن تنتهي ، فسوف يُسْلمكم العذاب إلى عذاب ، حتى ينادوا : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وهو عذاب متجدد : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنْكَى لأهل الشر وأغْيظ لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوابَ على الخير وعظَم الجزاء على الطاعة ، ومثل هذه المقابلات كثيرة في كتاب الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا بعد أنْ ذكر النار وما لها من شهيق وزفير ، يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ قُلْ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أمْر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم الذين اعترضوا على نبوته ﷺ باعتراضات واهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتخبَّطون فى هذه المسائل تخبُّط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أنْ يتعرَّض لرسول الله فى أمر دعوته ، والتعرُّض لأىِّ نبىٍّ فى أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعى ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشرى الفساد .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل فى كل نفس ملكةً تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتى ملَكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المناعة فى ذات الإنسان ويُسمُّونها النفس اللوَّامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملَكة ، فتتعاون كل ملَكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملَكاتها أمَّارة بالسوء ، وهى أمَّارة بصيغة المبالغة لا آمرة أى : أنها أخذتْ هذا الأمر حِرْفةً لها .

كما لو رأيت رجلاً يَنْجُر فى قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإن اتخذها حرفةً له ، لا يعمل إلا هى ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخيَّاط . فالمعنى : أمَّارة يعنى : لم يَعُدْ لها عمل فى أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقوِّى نوازع الشر فى النفس ، وتتأصل فيها حتى تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بُدَّ أنْ يجعل الحق سبحانه فى نفوس قوم آخرين ملَكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمَّارة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفسٌ مانعة ، ولا مجتمعٌ مانع ، فلا بُدَّ أنْ تتدخَّل السماء برسول جديد .

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أنْ يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ؛ لذلك لا حاجةَ لرسول بعد رسول الله ﷺ . إذن : فالمناعة موجودة فى أمة الإسلام ، ولو لم تكُنْ هذه المناعة موجودة فى النفس أولاً ، وفى المجتمع ثانياً لتدخلتْ السماء بعد رسول الله برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخَلْق إلى رُشْدهم .

ولا شكَّ أن فى المجتمع طائفةٌ تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون فى ترف فى ظله ، فطبيعى ـ إذن ـ أنْ يدافعوا عنه ، وطبيعى أنْ يتصدَّوْا لدعوة الرسول التى جاءتْ لتعدل ميزان المجتمع ، وأنْ يقفوا له بالمرصاد ؛ لأنه يهدِّد هذه النفعية ويقضى على مصلحتهم .

وإنْ كان الرسل السابقون قد تعرَّضوا لمثل هذا الاضطهاد ، فقد تعرَّض رسول الله ﷺ لأضعاف ما تعرَّضوا له ؛ لأن اضطهاده ﷺ جاء مناسباً لضخامة مهمته ، فقد جاءتْ الرسل قبله ، كُلٌّ إلى أمته خاصة فى زمن محدد ، أمّا رسالته ﷺ فقد جاءت للناس كافة ، تعمُّ كل الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فلا بُدَّ إذن أن تكون مهمته أصعب .

وهؤلاء الكبراء الذين ينتفعون بالفساد فى المجتمع يظنون أن رسول الله إذا لُوِّح له بالمال والنعيم يمكن أن يتنازل عن دعوته ، ويترك لهم الساحة ؛ لذلك اجتمع صناديد قريش على رسول الله ، يُلوِّحون له بالمال والجاه والسلطان ، ليصدُّوه عن الدعوة ويصرفوه عنها ، هؤلاء الذين سماهم أستاذنا الشيخ موسى : دستة الشر ، وكانوا اثنا عشر رجلاً ، منهم : أبو البختري[1] ، وأبو جهل ، وأبو سفيان ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعتبة بن ربيعة ، ومُنبِّه بن الحجاج ، والوليد بن المغيرة ،

(١) أبو البخترى : اسمه العاص بن هشام بن الحارث . قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : هو العاص بن هاشم . [السيرة النبوية ١/٢٦٤] .

والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، ونُبيه بن الحجاج[1] .

لقد ذهب هؤلاء[2] إلى سيدنا رسول الله يقولون : « نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدِّم المعذرة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإنْ كنتَ تريد مالاً جمعنا لك الأموال ، وإنْ كنتَ تريد شرفاً سوَّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملَّكناكَ علينا » .

وفَرْق بين المال والشرف : المال أن يكون الإنسان غنياً ، لكن ربما لا شرفَ له ، ولا مكانةَ بين الناس ، وهناك مَنْ له شرف وسيادة ، وليس له مال .

ونلحظ أنهم ارتقوْا في مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى الملْك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذي مهَّد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : « بل أشبع يوماً فأشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فأتضرع »[3] .

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٤) أنهم تسعة نفر ، واستثنى ممن ذكرهم الشيخ : أمية بن خلف ، النضر بن الحارث .

هذا الوفد ذهبوا إلى أبي طالب وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٥) وانظر موقفاً آخر (١/٢٩٥) .

(٢) هو : الوليد بن المغيرة في واقعة أخرى أنه قال لرسول الله ﷺ : يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه . [سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ، ٢٩٤] باختصار .

(٣) عن أبي أمامة قال النبي ﷺ : « عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٤٧) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٥٤) . قال الترمذي : حديث حسن .

وفي موقف آخر ، قال له جبريل : يُخيِّرك ربك أن تكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ؟ فقال : « بل نبياً عبداً »[1]

والنبي مالك منهج السماء ، والملك الذي يملك السيطرة بحيث لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث آتاه الله مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا المُلْك هو المطلوب في ذاته ، بدليل أن سليمان - عليه السلام - مع ما أوتيه من المُلْك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعني : الخبز الأسمر غير النقي (الردَّة) في حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاخر النقي[2] ، فلم يكن سليمان يريد المُلْك لذاته ، إنما ليقْوَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتْ إليه ملكة سبأ بهدية لتستميله بها وتَصرْفه عما يريد ردّ عليها : ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)﴾ [النمل]

لذلك جاءته صاغرة تقول :﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل]

إذن : مسألة المال هذه عُرِضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه ممَّنْ يملكه ، فكيف يقبله ممَّنْ لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم : والله ما بي حاجة إلى ما تقولون ،

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠/٩) : « فيه بقية بن الوليد وهو مدلس » . وعزاه للطبراني في الأوسط وقال (٣١٥/١٠) : « فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) أخرج أحمد في الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربي - بيروت) عن عطاء رضي الله عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بني إسرائيل الحواري . وأورده السيوطي في الدر المنثور (١٨٩/٧) في تفسير آية ٣٥ - سورة ص . والحواري هو الدقيق الأبيض النقي .

فلست طالب مال ، ولا مُلْك ، ولا شرف ، إنما أنا رسول الله أُرسلْتُ إليكم ، ومعى كتاب فيه منهجكم ، وأمرنى ربى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فإنْ جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظَّ الدنيا والآخرة ، وإنْ رددتُمْ عليَّ قولى فإننى سأصبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين[(١)].

فلجئوا إلى عم النبى ﷺ ، لعله يستطيع أن يستميله ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[(٢)].

﴿ أَذَٰلِكَ (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : ما أنتم فيه الآن من العذاب خير ، أم جنة الخلد التى وُعد المتقون ؟ احكموا أنتم فى هذه المسألة وسنرضى بحكمكم ، إنها إغاظة لأهل النار ، حيث جمع الله عليهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم . ولو كانت الأُولى وحدها لكانت كافية ، إنما هو فى العذاب ويأتيه أهل الجنة ليُبكِّتوه : انظر ما فاتك من النعيم !!

وفيها أيضاً تقريع لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأنت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أنْ تكلّمنا عن الصراط ، ولماذا ضُرِب على متْن جهنم ، والجميع يمرون عليه ؛ لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أنْ يجعل لك

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية بنحو هذا (٢٩٦/١) .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق . أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . فقال رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب هذه المقالة .

من مـرائى النار التى تمرُّ علـيهـا فوق الصـراط نعمـة أخرى تُذكِّـرك بالنجاة من النار قبل أنْ تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخـول الجنة فحسب ، إنما أيضـاً بالنجاة من النار ، فيـقول سبـحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يذكـر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا وكذا ، أما فى الآخـرة فسوف نراها رأى العـين ، كما قال سبـحانه : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾[التكاثر] وذلك حين تكون على الصراط ، فتـحمد الله على الإسلام الذى أنجـاك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ..(١٥)﴾[الفرقان] كلمة خير فى اللغة تدور على معنيين : خيـر يقابله شرٌّ ، وخير يقابله خير أعظم منه . كـما جـاء فى الحديث الشـريف : « المؤمن الـقوى خـير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعـيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فكلاهما فيه خيـر ، وإن زاد الخير فى المـؤمن القوى ، وعـادة ما تأتى (من) فى هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)﴾ [البينة]

والجنة كمـا نستعملهـا فى استعمـالات الدنيا : هى المكان المليء بالأشجار والمزروعات التى تستر السائر فـيها ، أو تستر صاحبها أنْ ينتقلَ منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى بهـا عن غـيـرها ، لذلك أردفـهـا الحـق ـ تبـارك وتعـالى ـ بقـوله : ﴿الْخُلْدِ..(١٥)﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجـه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ومسلـم فى صحيـحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إذن : فالجنة التى تراها فى الدنيا مهما بلغت فليست هى جنة الخلد ؛ لأنها لابد إلى زوال ، فعُمرها من عُمْر دُنْياها ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة فى الدنيا : لا تغترّ بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشدّ الغم لصاحب السرور أنْ يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أشَدُّ الغَمِّ عنْدى فى سُرُور   تَيقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُه انْتِقَالاَ

لذلك يُطمئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التى وعدهم بها هى جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنغّص سرورها ، فلذّاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ⟨١٥⟩ ﴾ [الفرقان] الوعد هنا من الله تعالى الذى يملك كل أسباب الوفاء ، والوَعْد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشرٍّ قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (مُتّق) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ⟨٢٤⟩ ﴾ [البقرة] يعنى : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ⟨١٩٤⟩ ﴾ [البقرة] ويقول ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ⟨٢٤⟩ ﴾ [البقرة] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقاية ؛ لأنكم لا تتحمّلون صفات قَهْره ، والنار جُنْد من جنود الله فى صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً .. ⟨١٥⟩ ﴾ [الفرقان] أى : جزاءً لما قدّموا ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ⟨٢٤⟩ ﴾ [الحاقة] فهذا تعليلُ ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تَعبُوا ، واضطهدوا وعُذّبوا ، وجزاء من عُذّب فى ديننا أن نُسعده الآن فى الآخرة .

﴿ وَمَصِيراً (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : يصيرون إليه ، إذن : لا تنظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصير إليه حَتْماً ، وتأمل وجودك فى الدنيا ، وأنه موقوت مظنون ، ووجودك فى الآخرة وأنه باق دائم لا ينتهى ، لذلك يقولون : إياك أنْ تدخل مدخلاً لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا (١٦) ﴾

فى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. (١٥) ﴾ [الفرقان] وهنا يقول ﴿ خَالِدِينَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] وهذه من المواضع التى يرى فيها السطحيون تكراراً فى كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْد الأول للجنة ، أما الثانى فلأهلها ، بحيث لا تزول عنهمُ ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] كأن امتياز الجنة أن يكون للذى دخلها ما يشاء ، وفى هذه المسألة بَحْث يجب أن نتنبه إليه ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] يعنى : إذا دخلتَ الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن : لك فيها مشيئة من النعيم ، ولا تشاء إلا ما تعرف من النعيم المحدود ، أما الجنة ففيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا فى الجنة ، أما فى الدنيا فلا أحدَ ينال كل ما يشاء - حتى الأنبياء - ألاَ ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى ..(٤٥) ﴾ [هود] فلم يُجَبْ إلى ما يشاء .

ومحمد ﷺ - رغم كل المحاولات - لم يتمكن من هداية عمه أبى طالب ، وهذا لا يكون إلا فى الدنيا ، لذلك فاعلم أن الله تعالى حين يحجب عنك ما تشاء فى الدنيا إنما ليدخره لك كما يشاء فى الآخرة ، مع أن الكثيرين يظنون هذا حرماناً ، وحاشا لله تعالى أن يحرم عبده .

وفى قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] عطاءات أخرى ، لكن ربك يعطيك على قَدْر معرفتك بالنعيم ، ويجعل عليك (كنترولاً) فأنت تطلب وربُّكَ يعطيك ، ويدخر لك ما هو أفضل مما أعطاك .

والمشيئة فى الأخرى ستكون بنفسيات وملَكات أخرى غير نفسيات وملَكات مشيئات الدنيا ، إنها فى الآخرة نفوس صفائية خالصة لا تشتهى غير الخير ، على خلاف ما نرى فى الدنيا من ملَكات تشتهى السوء ، لأن الملكات هنا محكومة بحكم الجبر فى أشياء والاختيار فى أشياء : الجبر فى الأشياء التى لا تستطيع أن تتزحزح عنها كالمرض والموت مثلاً ، أما الاختيار ففى المسائل الأخرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] الوعد - كما قلنا - البشارة بخير قبل أوانه . وبعض العلماء يرى أن وعداً هنا بمعنى حق ، لكن هل لأحد حق عند الله ؟

وفى موضع آخر يُسمِّيه تعالى جزاءً ، فهل هو وعد أم جزاء ؟ نقول : حينما شرع الحق سبحانه الوعد صار جزاءً ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - لا يرجع فى وعده ، ولا يحول شيء دون تحقيقه .

وكلمة ﴿ مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] مَن السائل هنا ؟ قالوا : الله تعالى علَّمنا أن نسأله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ .. (١٩٤) ﴾ [آل عمران] فقد سألناها نحن .

وكذلك سألتها الملائكة ، كما جاء في قوله سبحانه على لسان الملائكة : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ⑧﴾ [غافر]

فالجنة - إذن - مسئولة من أصحاب الشأن ، ومسئولة من الملائكة الذين يستغفرون لنا[1].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ⑰﴾

قوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ⑰﴾ [الفرقان] الحشر : جَمْع الناس أجمعين من لَدُنْ آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقومَ الساعة في مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ، ونحن في جيل واحد ، فما بالك بموقف يجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة : أن يطيع العابدُ أوامرَ معبوده ، فينبغي أن ننظر في كل مَنْ له أمر نطيعه : أهو أمر من ذاته ؟ أم أمر مُبلِّغ من أعلى منه : رسول أو إله ؟ فإنْ كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُبَاح أم يتعارض مع نصٍّ شرعي ؟ فإنْ كان مباحاً فلا بأسَ في إطاعته ، أما إنْ كان مخالفاً للشرع فإنْ أطعْتَه فكأنك تعبده من دون الله .

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ⑯﴾ [الفرقان] قال : إن الملائكة تسأل لهم ذلك في قولهم ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ⑧﴾ [غافر] قال سعيد : وسمعت أبا حازم يقول : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا ، فانجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا ⑯﴾ [الفرقان] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٤١) .

إذن : حينما يأمرك الآمر بالصلاة أو الزكاة أو الصوم فأنت قبل أن تطيعه أطعتَ مَنْ حَمَّله هذه الأمانة ، والذين يطيعون مَنْ يأمرونهم بأشياء مخالفة لمنهج الله عبدوهم من دون الله ، وجعلوهم آلهة مُطاعين ، كما قال سبحانه فى الشياطين : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام] وآخرون عبدوا الطاغوت ، أو عبدوا الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، أو الأصنام والجماد .

ومعلوم أن عبادة هذه الجمادات عبادة باطلة خاطئة ، فالعبادة إطاعة أمر ، وهل للجمادات أمر لأحد ؟ إنما العبادة إنْ صَحَّتْ بهذا المعنى فتكون لِمَنْ يملك أمراً أو سلطة زمنية من الرهبان ، أو من الشياطين ، أو الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام حيث قال البعض بألوهيته أو العزير الخ . ودخلت الجمادات مع هؤلاء على سبيل العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] يعنى : يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال فى مكان واحد معاً ، لماذا ؟ لأن العابد إذا وجد نفسه فى العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب ، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل فى النجاة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

والخطاب هنا مُوجَّه لمن يعقل منهم ، ولا مانعَ أن يكون للجميع ، فنحن نتحدث عن القانون الذى نعرفه ، وقد بيَّن لنا الحق - تبارك وتعالى - أن لكل شىء لغةً ، فلماذا نستبعد أن يكون الخطاب هنا للعاقل ولغير العاقل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِه وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

وقد قال سليمان عليه السلام وهو ممَّن فقه التسبيح : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي(١) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٥)﴾ [الأحقاف] لما سمع النملة تُحذِّر قومها : ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] فتبسَّم سليمان - عليه السلام - لما سمع من النملة وسمَّاه قَوْلاً ، وفي هذا رَدٌّ على مَنْ يقول : إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قَوْل مخالف لنصِّ القرآن الذي قال : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قُلْتَ : هو تسبيح دلالة فقد فقهته ، وقد حكم سبحانه بعدم فقْهك له إلا إذا عرَّفك الله تعالى ، وأطلعك على لغات هذه المخلوقات .

ولماذا نستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرِّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، وألسْنَا نتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير منطوقة ، وهي لغة الإشارات التي يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

فالحق - سبحانه وتعالى - يسأل المُعبودين : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. (١٧)﴾ [الفرقان] والله يعلم إنْ كانوا أضلُّوهم أم لا ؛ لذلك أجاب عيسى - عليه السلام - على مثل هذا السؤال في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. (١١٦)﴾ [المائدة]

وسؤال الله للمعبودين تقريع للعابدين أمام مَنْ عبدوهم ، ولو أن

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥)﴾ [الأحقاف] أي : ألهمني شكرك وادفعني إليه وحبِّبْه إليَّ [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

عبادتهم بحقٍّ لكان المعبودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله ؛ لذلك أجاب عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ .. (١١٧) ﴾ [المائدة]

أما الآخرون فقالوا : ما أضللناهم ، بل هم ضلُّوا السبيل .

وكلمة ﴿ عِبَادِى .. (١٧) ﴾ [الفرقان] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عباد) و (عبيد) ، وعبد يعنى أنه خاضع لأمر السيد ، وليس له تصرُّف من ذاته ، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق الله عبيد ؛ لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد الله تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته .

لذلك نقول للذين ألفُوا مخالفة أوامر الله والتمرد عليه سبحانه : قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا ، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه .

إذن : لكم جَرْأة على المخالفة وإلْف للتمرد ، وما دام لك دُرْبة على ذلك ، فعليك أنْ تتمرد أيضاً عند المرض وتقول : لن أمرض وتتمرَّد على الموت فلا تموت ، لكن هيهات ، فهذه مسائل ، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وهناك أمور أخرى جعلها الله بالاختيار . فالذين سبقتْ لهم من الله الحسنى ، وأُلْهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده ، فيكونون عبيداً لله فى كل الأمور القهريات وغير القهريات ، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله .

فالعباد - إذن - يشتركون مع العبيد فى القهريات ، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختياره عَزَّ وجلَّ ؛ لذلك سمَّاهم عباداً ، كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

والاستفهام فى قوله سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي .. (١٧) ﴾ [الفرقان] يقول فيه بعض غير المؤهَّلين للفَهْم عن الله : أما كان يقول : أأضللتم عبادى ؛ ونقول لهؤلاء : ليس لديكم الملَكَة اللغوية لفَهْم القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول : أبنيتَ البيت الذى أخبرتنى أنك ستبنيه ؟ فيخبرك : بنيتُه أو لم أبْنه ، أمَّا حين تقول : أبنيتَ هذا البيت ؟ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إذن : فَرْقٌ بين السؤال عن الحَدث ، والسؤال عن فاعل الحدث ، والضلال هنا موجود فعلاً ، فالسؤال عن الفاعل ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

وسمَّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ؛ لأن الكلام فى الآخرة ، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار ، الاختيار كان فى الدنيا وعليه ميَّزنا بين العبيد والعباد ، أما فى الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يُميِّزهم ؛ لأنهم جميعاً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾

---

(١) المشى هوناً : بالسكينة والوقار . قاله عكرمة ومجاهد فيما نقله عنهما ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : هون] .